تراس (προκάθηται) في عاصمة بلاد الرومانيين الخليقة بالله (θεοπρεπῆς) المستحقة الشرف الجديرة بان تُدعى مطوّبة الحريّة بالثناء المتقدمة (προκαθημένη) على جماعة المحبة المشرّفة باسم يسوع المسيح ابن الاب سلام . . . »

أفلا يرى القارئ لاوّل وهلة ما في مطلع هذه الرسالة من الشهادة لتقدُّم كنيسة رومة ورئاستها على جميع الكنائس ؟ فانهُ لم يكتفِ بان ينعت الكنيسة الرومانيّة بنعوت وصفات جليلة لا شبه لها في رسالاتهِ الى بقيّة الكنائس بل وصفها بالرئاسة على جماعة المؤمنين المشتركين بمحبّة الرب . وقد اختار للدلالة على هذه الرئاسة لفظة لا تعني فقط التقدُّم والشرف والمقام بل تدلُّ على السيادة والامر فان لفظة (προκάθηται) وردت ما خلا هذا المكان في موضعين آخرين فقط من رسائل اغناطيوس وذلك في كتابهِ الى اهل مغنيسيّة وفي كلا المكانين تدلُّ على رئاسة الامر لا على الشرف فانهُ هناك يحضُّ المؤمنين بان يطيعوا « الاسقف المتقدّم نيابةً عن الله » وان يعيشوا بالاتحاد مع اسقفهم والمتقدّمين عليهم » فينتج من ذلك انَّ القديس اراد ايضاً بكلامهِ عن كنيسة رومة ليس التصدُّر فقط بل السيطرة والرئاسة . ويظهر ذلك جليًّا اذا قوبل بمطلع رسالتهِ الى بقيّة الكنائس فانهُ لا يكتب الى تلك الكنائس انها « متقدّمة على افسس » او « على ازمير » بل يكتب « من اغناطيوس الى الكنيسة التي هي (τῇ οὔσῃ) في افسس » او « هي في ازمير » . وزد على ذلك انَّ هذا الشهيد العظيم في اثناء رسالتهِ يقرُّ بعظمة كنيسة رومة حيث يقول للرومانيين : « ليس لكم ما تحسدون بهِ غيركم البتّة فانكم انتم الذين تعلّمون الآخرين وانا أُثبت واقرّر ما تعلّمون وما تأمرون بهِ » . فالله درُّها من شهادة نفيسة لا تترك في النفوس ريباً عن تقدُّم كنيسة رومة بالسلطان وحسن المعتقد وتعليم الكنائس . وفي هذا كفاية لبيان ما قصدنا هذه المرّة . وان شاء الله نورد في مقالة أخرى ما لدينا من الشواهد عن الرئاسة البابويّة على كنائس الشرق في القرن الثاني

ميخائيل البحري الرومي الملكي الشاعر واولادهُ

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

كنّا وعدنا في ما سبق والحرُّ يجزّ الوعد بانّنا نواصل البحث في مشاهير رجال المشرق ممّن شادوا لهم في زمانهم من العلوم صرحاً منيعاً . او اصابوا بسموّ مداركهم

مقامًا رفيعًا. فنالوا لدى الخاصّة الحظوى والاعتبار. واستلفتوا اليهم كلّ الابصار. على أنّنا نؤثر بينهم من قرنوا الفضل بالفضيلة. واتصفوا بالصفات الفريدة الجميلة. ليتأرّج اهل الوطن بعبير شمائلهم العاطرة. ويأتسوا بمحامدهم الفاخرة

فما كلُّ ازهار الرياض أريجةٌ وما كلُّ اطيار الفلا تترنّمُ

هذا وبينما كنّا نجدُّ في البحث والتنقير عن ترجمة الشاعر الياس اده الذي اوردنا فصولًا من نظمهِ في سنتنا المنصرمة اذ وقفنا على اخبار رجل آخر عاش في عصرهِ. وحلب مثلهُ اشطر دهرهِ. فذاق من حلوهِ ومرّهِ. نريد شاعرًا مفلقًا يدعى ميخائيل البحري الذي نال في زمانهِ من الشهرة ما دعانا الى اثبات اسمهِ على صفحات هذه النشرة

١

وُلد ميخائيل بن عبُّود البحري في اواسط القرن الثامن عشر في حمص من أُسرة فاضلة لا يزال منها بقايا الى يومنا في مدن كثيرة كحمص ودمشق ومصر. امّا ملّتهُ الاصليّة فالغالب على ظننا انّها كانت ملّة الروم الارثدكس وُلد فيها ونشأ على عقائدها ودليلنا على صحّة هذا القول انّ قسمًا من بيت البحري الذين يسكنون الى عهدنا هذا مدينة حمص يُعدُّون فيها من وجهاء طائفة الروم الارثدكس

ولمّا دخل ميخائيل في ريعة الشباب آنس من نفسهِ ميلًا الى الآداب والعلوم فأحرز منها ما امكنهُ في وطنهِ بدرسهِ الخاص واجتمع باهل الادب واخذ عنهم شيئًا كثيرًا. ورزقهُ الله ثلاثة اولاد سيأتي ذكرهم في آخر هذه المقالة. ثمّ اضطرّتهُ الاحوال الى ان يرحل الى دمشق فتوطّنها مدّة وعاشر افاضلها وتفرّغ فيها للنظم وكان لهُ من جرد القريحة ما لم يكن لنصارى عصرهِ فقصّد القصائد ومدح اصحاب الفضل واحرز لهُ اسمًا بين الادباء.

والمرجّح عندنا انهُ في اثناء اقامتهِ في دمشق اجتمع بقوم من ملة الروم الملكيين فرأى من فضلهم وحسن صفاتهم وصبرهم على الشدائد ما حدا بهِ الى الانتظام بسلكهم والتشبُّث بعرى ايمانهم على عهد البطريرك ثاوفيلوس دهّان. نحو سنة ١٧٧٠ فاخذ منذ ذاك الحين يسعى في تعزيز مذهب الكثلكة وفرغ كنانة الجهد ليردّ الى الايمان القويم ابناء جلدتهِ

وفي ذلك العهد كان يتولى على عكّا رجلٌ اسمهُ ظاهر العُمر الزيداني من

الشيوخ القيسيين المتاولة كان ولّاهُ عليها الامراء الشهابيون فخدمهم مدّة الى ان مات الامير بشير الشهابي الاول فطمع في الاستبداد ولم يزل يحارب من ناواهُ او تعرّض لهُ في تحقيق امانيهِ الى ان ثبّت ملكهُ على عكّا وضواحيها واتخذ لهُ نوّابًا في يافا وحيفا وصور وصيداء ونابلس وصفد واستفحل امرهُ. وفي سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) طلب ابو ظاهر العمر لهُ رجلًا اديبًا يقلدهُ تدبير امورهِ ويسلّمهُ ديوان الكتابة فلم يجد رجلًا اجدر بذلك من احد نصارى عكّا من طائفة الروم الملكيين اسمهُ ابرهيم الصبّاغ فألقى على عاتقهِ زمام التدبير وجعلهُ من اخصّ اصحابهِ وكان لا يتعاطى شيئًا دون رضاه ويخنع الى آرائهِ. وكان ابراهيم يناظر اموالهُ وايراداتهِ ويقوم بمصروفهِ ومصروف اولادهِ وحريمه

فسمع ميخائيل بما صار لابراهيم الصبّاغ من الشهرة ونفوذ الكلمة فسار الى عكا ودخل في ديوان الكتابة تحت تدبير ابراهيم المذكور واظهر من البراعة في الانشاء ونظم الشعر ما حبّبهُ الى وليّ نعمه. وكان الصباغ يرشدهُ ويتولّى تهذيبهُ ويشدّ ازرهُ حتى اصبح ميخائيل متقدّمًا في ديوان الكتابة

ولمّا كانت السنة ١١٨٩ هـ (١٧٧٥ م) ارسلت الدولة العليّة حسن باشا قبودان الجزائري امير البحر ليجمع الاموال الاميريّة في بلاد الشام فطلب من الشيخ ظاهر العُمَر ما للدولة العليّة عليهِ من المال واستنهضهُ لدفعهِ. فاستشار الشيخ صاحب ديوانهِ فتبرّم الصبّاغ بدفع المال واجاب انهُ ليس في يدهِ ما يقضي بهِ المال المطلوب. فردّ الشيخ ظاهر رُسل حسن باشا خائبين فغضب لذلك امير البحر وحاصر عكا واخذها عنوةً وقُتل الشيخ ظاهر يد بعض المغاربة وكان ذلك في اوائل سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م). ثم دخل حسن باشا المدينة وضبط خزائن ظاهر العُمَر واستصفى جميع اموالهِ. واما ابراهيم الصبّاغ فقبض عليه الشيخ عليّ الدرويش وكان تربالهُ فارسلهُ الى حسن باشا فاعتقلهُ مدّة وامر بتكبيلهِ ثم شنقهُ في صاري مركبهِ

٢

فلمّا توفّي الصبّاغ تشتّت شمل عمّالهِ. فسار ميخائيل البحري الى الامير يوسف الشهابيّ فخدمهُ مدّةً وأرسل لبعض شؤونهِ الى احمد باشا الجزّار والي مدينة عكا فجعلهُ الجزّار في ديوانهِ مع قوم من النصارى من جملتهم المعلم ميخائيل الكروج وابراهيم ابو قالوش ويوسف مارون والمعلّم الياس ادّه. الّا انّ الجزّار لما كان مطبوعًا عليهِ من شراسة

الاخلاق وسوء الطباع كان يتغيَّر سريعاً على عمَّالهِ فيزجّهم في السجون ويقتل بعضهم ويمثّل بغيرهم

وكان ميخائيل البحري من جملة الكتبة الذين اخلصوا الخدمة للجزَّار فخدمهُ بنشاط وغيرة بيد انَّ مولاهُ اساء فيهِ النيَّة وامر بهِ فأُلقي في السجن وبقي مدَّة في اسوإ حال. على انَّهُ كان يتحمَّل اوجاعهُ بصبر وقد نظم في السجن قصيدة اودعها شرح حالهِ ذكر منها بعض ابيات الامير حيدر الشهابي في كتابهِ « حوادث الزمان » في تاريخ سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٨م). وهذه الابيات مسخها الكاتب بالنسخ فلم يُستخرج لها بيت مضبوط

وفي آخر سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩م) اطلق الجزَّار سبيل اسيرهِ البحريّ لكنَّهُ ابى الَّا ان يترك في جسمهِ أثر همجيَّتهِ فقطع آذانهُ وانفهُ ثمَّ سرَّح عنهُ. فما صدَّق البحريُّ ان خرج من سجن الجزَّار حتى آلى على نفسهِ ان لا يدخل دار ولايةٍ ولا يقابل صاحب امر فمضى الى بيروت واتخذ لهُ مكاناً فيها وعاش في عزلتهِ وهو منقطع الى العبادة وتدبير امور بيتهِ الى ان ادركتهُ الوفاة نحو سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م)

٣

وكان المعلم ميخائيل البحري رجلاً اديباً متوقد الذهن حسن الذوق. وتعاطى نظم الشعر ولهُ فيهِ ديوان ضاع اكثرهُ وبقي منهُ بعض شذرات نوردها ليعلم القرَّاء علوَّ مقامهِ. ومما يزيدهُ فضلاً انهُ بلغ هذه المرتبة بدرسهِ الخاص اذ لم يكن في تلك الايام مدارس منظَّمة يأخذ فيها الطلبة مبادئ العلوم عن اساتذة يتفرَّغون للتدريس. فمن جملة قصائدهِ ابيات قالها في الاب الفاضل الخوري يواكيم المطران مدبّر مجمع رهبان مار يوحنَّا الشوير القانونيين وكان من اهل العلم والفضل لهُ عدَّة مصنَّفات طُبع منها بعضها فلمَّا توفي سنة ١٧٦٧ م (١ قال ميخائيل البحري يرثيهِ:

عزَّى الزمان سماء كنت فرقدها سجّى القتام لارضٍ كنت أوحدها

وهي طويلة لكنَّ الركاكة فيها ظاهرة ولعلَّها من اوَّل نظمهِ. ومن اقوالهِ الحسنة موشَّح يذكر بهِ الزمان ويتذكَّر اوطانهُ واحبَّاءهُ ويمدح السيد احمد البربير من مدينة بيروت وكان في زمانهِ عالماً معروفاً وشاعراً موصوفاً. وقد انتخبنا منهُ بعض الادوار :

---

١) كذا وجدنا في مجموع صغير يحتوي بعض قصائد ميخائيل البحري. وفي تاريخ طائفة الروم الملكيين (ص ٥٦) انَّ القس يواكيم هذا توفي سنة ١٧٧٢ في عكا

حيِّ ذاك الحيَّ يا ريح الصبا وأهيلَ الحيِّ عني والصبا
انَّ قلبي هام فيهم وصبا فمتى يسمح دهري باللقا

يا بريقًا في الدياجي لمعا هيَّج المحزون حتى اوجعا
يا سقى الله الحمى ثم رعى يا رعى الله الحمى ثم سقى

حبَّذا حمصُ وهاتيك الربوعْ وكِلامٌ اشرقوا مثل الشموعْ
يا لعمري هل اليها من رجوعْ اين اين الربع ثمَّ الملتقى

نسجت ازهارها ايدي الربيعْ وضمتها السُّحب بالدرّ البديعْ
نسمةٌ احيت بذيَّاك البقيعْ ميتَ حبٍّ من شذاها نشقا

حبذا عيشٌ مضى في ظلِّها وزمان قد حلا مع اهلها
اضرم الشوق الغضا من اجلها في فؤادٍ جفَّ حتى احترقا

كم ولجتُ في ثغورٍ وبلادْ وجبال جسُّها مع كلّ وادْ
لستُ القى مَن به نيلُ المرادْ لا ولا قد نالني الَّا الشقا

حبذا العاصي وذيَّاك النسيمْ وغصونٌ ظلُّها ظلّ النعيمْ
حبذا اكناف واديهِ الوسيمْ قد نشقنا عرفهُ مذ عبقا

حبَّذا الدولاب(١ان ابدى الانينْ دائرًا في حيرةٍ مثل الحزينْ
هيَّج الاشواق مني كلَّ حينْ دمعهُ لمَّا غدا مُترقرقا(٢

مرَّت الارياح في تلك الغصونْ حرَّكت اعطافها بعد السكونْ
باكرت زهر الحمى سُحبُ المتونْ ذخرت عنها لشامًا فتقا

كيف يحلو عيش من امسى كئيبْ اذ نأى عن قومهِ ثمَّ الحبيبْ
يا زمانًا طرفهُ مثل الرقيبْ لا رعاهُ الله طرفًا رمقا

خانني دهري بتبديد العهودْ وغدت ايَّامنا الغرَّاء سودْ
لم اجد في غربتي خلًّا ودودْ لا ولا مولى سوى ربّ التقى

١) يشير الى نواعير حمص ٢) اسكن التاء لضرورة الشعر

احمد البربير من انشا الادبْ وعلوماً بين عُجم وعربْ
وحوى فخراً بما اسمى الرتبْ قدرهُ ثمَّ السماكين ارتقى

فاق فضلاً في الورى حتى ابانْ شرح تلخيص المعاني والبيان
وكذا نظماً حكى نظمَ الجمانْ زانهُ حسن القوافي رونقا

ذو خلالٍ قد حفت مثل الزلالْ وكمالٍ دونهُ كلُّ كمالْ
من يرُم من كفهِ فيض النوالْ نال حتى في عطاهُ غرقا

يا ربي بيروت حيَّاكِ الندا ورعاكِ الله من طرف المدى
حبَّذا عيشٌ مضى مع احمدا وزمان في حماكِ سبقا

بلّغيهِ الشوق مني كلّما أنَّ مشتاقٌ الى ذاك الحمى
او دعا داعٍ غدا مُترنّما في دوام العمر مع طول البقا

فاجابهُ الشيخ احمد البربير المشار اليه بعدهُ بهذا الموشّح ويسلّيهِ على اكدار الزمان :

طُبع الدهرُ على عكس الاملْ وعلى رفع الدُّنابى والسفلْ
ما ترى البدر عن النجم نزلْ والثرى كيف على الهام رقا

من يرُم منهُ سروراً وهنا فاساس العقل منهُ وهنا
كم ارى الطرفَ لبيباً قطنا ماهراً في لجةٍ قد غرقا

فهو كالميزان يعلي من نقصْ او كقردٍ عضَّ الا من رقصْ
وهو للبلبل سجن وقفصْ وبهِ البوم غدا منطلقا

سنَّة للناس قدماً سنَّها وسيوفٌ سلَّها مذ سنَّها
فاذا راعتك فاصبر انَّها هي والدهر كطيفٍ طرقا

انما الناس كما صحَّ نيامْ والفتى الحنار منهم والامامْ
ليس يرتاع لاحلام المنامْ لو رأى الجوَّ عليهِ انطبقا

انما المرء بنطقٍ وفؤادْ فاذا فات الفتى كان الجمادْ
والحجى اشرف رزق للعبادْ اذ هو الراحة والمال شقا

ولعمري ليس ذو الفضل غريبْ بل نراهُ ايما حلَّ حبيبْ
انما الغربة للقدم القريبْ وهو بالاوطان بين الرفقا

ودليلي غربة البحري الشَّعورْ الذي تحلو بذكراهُ النثور
شاعرٌ في صدرهِ ضمَّ البحورْ مثل ضمّ البحرُ درًّا يقتا

كم بيانٍ من معانيهِ بديعْ قد رفعناهُ على نظم البديعْ
في بيانٍ مثل ازهار الربيعْ ناظرًا تيهك او متثنّا
قطنٌ من بدءِ الماضي بكى وباصوات النواعير شكا
ودجت حمصٌ وكانت قلكا لمجيأهُ فمادتْ غصنا

حازم لم يثنِ شخصٌ عقدهُ ناظمٌ تبغي المذارى عقدهُ
لم تلد امُّ المعالي بعدهُ فطنًا نال العلى مستبقا

دام في الصحّة والعيش الهني بالنًا كلَّ مرادٍ حسنِ
ما شدت صادحة في فننِ فاطارتْ كلَّ قلبٍ خفقا

ومما نظمهُ المعلّم ميخائيل قولهُ يمدح السيد احمد البربير وقد اقترحها عليهِ المعلّم مسعد في بيروت:

يا فاضلًا اضحى بهِ خبرُ الافاضل مبتدا
يا مشرق الاوصاف يا علَم الفضائل والهدى
يا بحر علم جاد في درِّ البيان متضّدا
يا روض آدابٍ زها وردا تكلّل بالندى
يا شمس فضلٍ اطلعت بسما المعالي فرقدا
يا كعبةً خرّت لها اهلُ البلاغة سجّدا
يا من بهِ ايّامنا كادت تنادي معبدا
يا من بهِ بيروت قد رقّت وراقت موردا
مذ اشرقت اوصافكم فيها فتاقت سؤددا
وغدت تباهي جلّقًا فيما حوت باحمدا
فكأنَّ هذا الشكل من ذاك الشفيع تولّدا
لولاك ما سرَّ الصبا بربوعها متردّدا
وكذا عُبيدك لم يكن لولا رضاكم مسعدا
يا احمد البربير يا علَمًا تخصّص بالندى
عاملتموني بالصدو د فما الذي منّا بدا
أبدلتموني بالسوى فاعطف عليَّ مؤكدا
أشمتَّ عذّالي وقد فرّحت فينا الحسّدا

فكأنكم ملتم سما عما نحو افواه المدى
او انَّ دهري خاتني فمحا العهود وبدَّدا
يا سيدي بالله لي أعد الوصال تودُّدا
فاربط يدي ولغيركم وابيك لن اتمهَّدا
وارحم لداعٍ لم يزل يرجو لوصلك موعدا
واذا رجوتُ لقاءكم اوجوهُ يومي لا غدا
فاسلم ودُم لا زلت في عيشٍ هنيءٍ ارغدا
ما بات يُروى عنكمُ حديث فضلٍ مسندا

فاجابهُ احمد البربير :

نَخرُ الصباح تقلَّدا عقد النجوم تنضَّدا
ام اعين الالفاظ منـ ـها سحر بابل قد بدا
ام خمرةٌ دارت على فكر اللبيب فعربدا
ام روضةٌ غنَّاء لم يبرح يباكرها الندى
ام تلك بكر بلاغةٍ عذراء تسبي الجرَّدا
لبست من النسج البديـ ـع ثيابها لا عن سدا
وشدت فما صوتُ المزا ر على الغصون اذا شدا
واتت بقانونٍ لدى العشاق يطرب معبدا
ورقيق عتبٍ كان كالـ ـماء الزلال على الصدى
اذ كان عن ودٍّ صحيـ ـحٍ لا يعاوجهُ صدا
فحواهُ اني بتُّ عن ذاك الحبيب مشرَّدا
فطفقت اقسم بالذي منح القلوب تودُّدا
اني اودُّ دنوَّهُ مني . يكون مؤيَّدا
ويردُّ حظّي كلّ يو مٍ ان يقارن مسعدا
والفاضل البحريّ مَن لبس المكارم وارتدى
فهما لديَّ النَّيِّرا نِ اذا فقدت الفرقدا
لكنَّهُ طُبع الزما ن على عنادي واعتدى .

واذا القلوب تآلفت قربت وان بعد المدى
يا من غدا حالي لديهِ اذا نعتُ مؤكدا
هذه عجالة من بنى فيك الرجاء وشيّدا
من كلّ بيتٍ مثل بيـ ـت العنكبوت اذا بدا
فاسلم ودُم وارقَ على رغم الحواسد والعدى
ما امَّ بابك شاعرٌ امسى لمدحك منشدا
او ما غدا البربير من كلّ الورى لك احمدا

وقال البحري مادحاً احمد البربير :

لولا فضائل احمدٍ قُصَّت لنا فيها وفي آياتها الاخبارُ
وكذاك لولا المعجزات فلم تكن حجّت لكعبة فضلهِ الافكارُ

فاجابهُ احمد البربير :

ارى الفاضل البحريَّ احيا بفضلهِ معالم ابياتٍ درسنَ من الشعرِ
ولا غرو ان حاز الفنون باسرها على المثل المشهور حدّث عن البحرِ

وقال ايضاً :

لقد انس البحريَّ برّي واهلهُ فاسمعتهُ عذري ولم اهدِهِ شعري
فان لم يكن درًّا فذاك نقيصةٌ وان كان درًّا كيف يُهدى الى البحرِ

وبعث السيد عبد اللطيف بن علي افندي المفتي الحنفي المكنى فتح الله وكان من تلامذة احمد البربير الى ميخائيل البحري يمدحهُ بهذين البيتين:

ولمَّا اتى البحريُّ بيروتَ زائرًا الينا فكم اهدى عقودًا من الشعرِ
فلا بدعَ ان اهدى لنا الدرَّ ناظماً فناهيك انَّ الدرَّ يبدو من البحرِ

فاجاب البحري بهذه الابيات يمدح بها احمد البربير :

ولستُ بمنسوبٍ لبحرٍ ترونهُ فايُّ افتخارٍ لي بذاك وما قدري
ولكنني مذ شاهدتُ بحرَ فضائل غرقت بهِ حتى نُسبت الى البحرِ
ولا تعجبوا مني لعشقي فكم صبا لاحمدَ من زيدٍ سوايَ ومن عمرو

وقال ايضاً يمدحهُ ويمدح تلميذهُ السيد عبد اللطيف:

ولمَّا اتاني الشعر يا غايةَ المُنى من الدرّ منظوماً لقد حرتُ في امري

وفاح لنا نشر المعاني كأنما سرت من صبا نجد بهِ نفحة النشرِ
فحليتُ فيهِ جيد فكري لانني ارى العبد حلّى عاطل الجيد بالدرّ
رهمتُ بمعنى جئت فيهِ ماخمًا لنا حسن ما ابديتَ من رقّة الفكرِ
وقلت اذا الرحمنُ خصّص عبدهُ بألطافهِ أجلى لهُ خافيَ السرّ
صبوتُ لكم مذ شمتُ بارق فضلكم وما ملتُ قلبًا نحو زيدٍ ولا عمرو
وحسبك مجدًا مع فخار بما اكتنى ابوك بهِ من آية الفتح والنصر
وما نال من سرّ الامام وقدرهِ بنسبتهِ فيهِ وما فيهِ من برّ
ومن أروت العزّاء اصلَ فروعهِ فكم اثمرت تالك الفروع من الفخرِ
وكم نلتَ بالبربير اسمى فضيلة وفضلٍ وآدابٍ وكم حزتَ من قدرِ
امام ولم يبدُ الزمان مضارعًا لهُ لا ولا القى كاحمد في دهري
جنيت ثمار الفضل من دوح علمهِ فجاء بمنظوم الفرائد والنثرِ
واسكرني رشف الحيا بلفظهِ وحقّك حتى الدهر لم أصحُ من سكري
فيا لك تلميذًا حوى الفضل والتقى بشيخٍ حوى التفضيل بالحمدِ والشكرِ

وقال ميخائيل معاتبًا للسيد احمد وكان اعتذر بالطرس عن مواجهتهِ:

ما لي وللغيث ان سحّت سحائبهُ يومًا وأحيا ربيع الارض بالديمِ
ولم اجد منك اوقات الوصال ولم افُزْ بدرّ حديث منك منتظمِ
أما علمتَ بوجدي فيك مع سقمي فهل ترى الصبر محمودًا مع السقمِ
او ما كفى سيدي ما نلتُ في زمني من صرم ودّ ونقض العهد بالذممِ
فيا غياثي ويا سؤلي ويا املي ويا شفائي ويا ذخري ويا نعمي
أعد عليَّ اللقا حتى اذا نظرت عيني اليك نجا جسمي من الالمِ
كأنَّ وصلك رضواني نعمت بهِ والهجر لي مالكٌ اقضى الى الضرمِ

فاجابهُ احمد البربير بهذه الابيات:

إلَم أزُرك فلي في البعد معذرةٌ مَن يقرب البحر في الأنواء والديمِ
وحقّ عقد ولاء انهُ قسمٌ اذا حلفت بهِ من اعظم القسمِ
ان غبتَ عن ناظري لم تنأ عن فكري او غبتَ عن يقظتي لم تنأ في الحلمِ
وان ذكرتكَ في انس تتابع او في عابسٍ من وجوه الدهر مُحتدمِ

وردُ قلبي قديمٌ لا تغيرهُ حوادث من صروف الدهر لم تدُمِ
فخذ ثناءك من ثغر الزهور فقد عجزتُ عن ان اؤدي حقَّهُ بفمي
واسلم ودم في نعيم غير منصرم ما طاب ذكرك في بدء وفي ختمِ

ومن نظم ميخائيل البحري قولهُ يمدح ابا بكر اغا ميري زاده في حلب سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩١ م) وهي طويلة اقتطفنا منها ما يلي:

ماست بقدٍ كالغصون تميَّدُ ورنت بطرفٍ كالظباء تغيَّدُ
خودٌ غزت منَّا القلوب لحاظُها فكأنها ضمن القلوب مهنَّدُ
حازت جمالًا ثمَّ حسنًا مثلما حاز الثنا والحمد منَّا الامجدُ
ذو المجد والعزّ الذي ساد الورى قدرًا وخُصَّ بهِ الندى والسؤددُ
ربُّ المحامد والمفاخر والبها الماجد ابنُ الاريحيّ السيِّدُ
بحرٌ سريعٌ بالعطايا واقرّ عذبت مناهلهُ وطاب المورِدُ
لو قيس في مزن الغمام نوالهُ لرأيتهُ من كفِّهِ يتعوَّدُ
مولًى رقى اسمى العلاء منازلًا ومحلُّهُ فوق السماك مشيَّدُ
مولًى لهُ البأس الشديد وهمَّةٌ تعلو ورأيٌ بالامور مسدَّدُ
يزري بسحبان البلاغة منطقًا ولهُ ابن اوس بالفصاحة يشهدُ
لو ان تجسَّم لفظهُ لوجدتهُ درًّا باجياد الحسان يُقلَّدُ
مولى تهلَّل وجههُ متبسِّمًا ان أمَّ وفدٌ او اتى مستنجدُ
ذو سطوةٍ عبسيَّةٍ ومكارمٍ طائيَّة قد ضاق منها الندفدُ
ورث الكرامة والدًا عن والدٍ ثمَّ الفخار وكلَّ فعل يُحمدُ
احيا ربيع الفضل فيض سخائهِ مذ سحَّ من سحب اليدين العسجدُ
واعاد ذكر الاكرمين كأنَّما اضحى نداهُ مخبرًا ما السُّؤددُ
كرمت بهِ الايام ثمَّ بمثلهِ ضنَّت لذاك نظيرهُ لا يوجدُ
قل للذي قد رام حصر صفاتهِ يفنى الزمان ولا تزال تُعدَّدُ
من معشرٍ نسجت لهم ايدي الزما ن من المكارم حلَّةً تتجدَّدُ
يتسابقون الى النوال وأيهم شاهدتهُ ذاك السبوق الاجودُ
افعالهم صحَّت فليس يعيبها ابدًا بنقص واعتلال مفسدُ

يا ابن الكرام اذا ذُكرتْ صفاتكم ضاع الشذا من روضة تتأوّدُ
مولاي دونك بنت بحرٍ كامل بكرًا تشنّف سمعنا اذ تُنشدُ
وافت لتمهرها قبولك انما منك القبول اجلّ مهرٍ ينقدُ
لا زلت تسمو بالسعود وقدركم لا زال يخترق الغمام ويصعدُ
ما فاح مسكٌ ختامها من مبتدٍ اضحى بمدح صفاتكم يتردّدُ

ولهُ تاريخ بميلاد خليل نجل الاغا الموما اليهِ سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩١ م)

بشراك بابنٍ بدا نجم السعود بهِ بديع حسنٍ زها بالحسن والنظره
باسم الخليل دعي كيما يكون لهُ حرزًا يقيهِ من الاسواء والعثره
طفلٌ حكى البدر اشراقًا وطرف ظبي الست تنظر منهُ الجفن والنَّجره
كانهُ في سما العزّ شامتهُ او منزل السعد مذ ارّختهُ غرّه

٤

هذا ما امكننا جمعهُ من اخبار ميخائيل البحري وشعرهِ المطبوع فعسى ان يسعد الحظّ احد ابناء طائفتهِ الملكيّة او أُسرتهِ الفاضلة على ان يكتشف بقيّة ديوانهِ المفقود ويزيدنا علمًا من اخبارهِ الساوة

وكان لميخائيل ثلاثة اولاد عبُّود وجرمانوس وحنّا وكلهم اشتهروا بعد ابيهم لكنَّهُ لم يبلغ احد منهم ما بلغهُ عبود. قال الامير حيدر الشهابي في تاريخهِ عنهُ: «كان عبُّود من الكتبة العظام ذا فطنةٍ وفهم تامّ وقد خدم الوزراء في ايامهِ. وارتقى الى أعلى رتبةٍ من مقامهِ. وكان ذا خطّ مليح (١). وبيان فصيح. حتى فاق مَن تقدّمهُ من كتّاب الدواوين في الحساب والانشاء. وكان يكتب في لغات كثيرة باحسن نصّ واقرب عبارة وقد فاق اباهُ بجميع الصفات. الّا انّ اباهُ كان اجود قريحة في فنّ الشعر والنظم»

وخدم المعلّم عبُّود اوّلًا ابرهيم باشا اوزون قطر اغاسي حلب لمّا حضر الى الشام وتولى ايالة صيداء بمدّة حصار عكّا. واخذهُ ابراهيم باشا بصحبتهِ الى الاوردي وبقي عندهُ الى ان رجع الى حلب وخلفهُ سليمان باشا في ايالة صيداء. فرحل المعلم عبُّود الى

١) ومما افادنا سيادة الحبر الفضال المطران ملاتيوس فكاك انّ المعلم عبود اكتسب شهرة عظيمة بالخط حتّى ضُرب المثل بخطّهِ فقيل: خطّ عبّوديّ. وقرأنا في تاريخ سليمان باشا للمعلّم ابراهيم عورا ان احد علماء الاستانة حضر دمشق وطلب المعلم عبُّود البحري فلما عرفهُ وتثبّت خطّهُ قال لهُ: احتفظ على خطّك فان ادباء الاستانة يقلّدون كتابتك

الشام وخدم عبد الله باشا العظم فتقدَّم عندهُ وصار من اخصّ اصدقائهِ. امَّا اخوهُ جرمانوس فخدم سليمان باشا في صيدا. ودخل معهُ عكاء الى ان فُصل عن خدمتهِ بسعي المعلم حايم فارحي اليهودي الذي كان من ألدّ اعداء بيت البحري. وبقي المعلّم عبُّود في ديوان الكتابة عند عبد الله باشا وزادت لديهِ كرامتهُ فاعلى مرتبتهُ وجعلهُ دفتردارًا « ديوان افنديسي » واستخدم اخويهِ جرمانوس وحنَّا وكلٌّ من وجد من عائلتهِ. وكانت سكنى بيت البحري في بيت قوتلي الحالي بقرب جامع صلاح الدين ومن اعمال عبُّود المشكورة انهُ سعى في تلك الاثناء مع اخيهِ حنَّا في بناء كنيسة دمشق لاهل ملَّتهِ فنال مرغوبهُ

وفي سنة ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨) صارت ايالة الشام الى يوسف أغا الكنج الكرديّ فحفظ المعلّم عبود البحري في رتبتهِ واحبَّهُ حبًّا شديدًا. وبلغ بهِ حبُّهُ نحوهُ الى ان عرض عليهِ الاسلام فأبى عبُّود ثمَّ خاف على دينهِ ففرَّ هاربًا من وجه الباشا. قال الامير حيدر: « والتجأ الى جبل الدروز مع اخوتهِ بجوار الامير بشير ». وقال المعلم ابراهيم عورا في تاريخ سليمان باشا: « انهُ هرب الى زحلة واستقام هناك وحرَّر عَرْضًا الى الامير بشير وعرَّفهُ سبب هربهِ والتمس منهُ استجلاب عائلتهِ واخوتهِ ». وختم معروضهُ بقولهِ:

وكنتُ أُطالبُ الدنيا بوقتٍ فكان الوقتُ وقتَكَ والسلامُ

فاجاب الامير الى سؤلهِ. امَّا يوسف باشا فلمَّا بلغهُ فرار المعلّم عبُّود تأسَّف على ما فعل وارسل الى الامير بشير رُسُلًا يطلبون منهُ صاحب ديوانهِ ويطمئنون خاطر المعلّم عبود ففوَّض الامير بشير الامر الى مَن التجأ الى حمايتهِ. فأبى عبُّود ولزم مكانهُ وعاد الرسل خائبين. ولمَّا اخذت امور يوسف باشا تتضعضع بسبب غياب صاحب ديوانهِ ارسل ثانيةً اليهِ وفدًا يتعهَّد لهُ بالامان التامّ ان رجع الى الشام. وكفل لهُ بذلك كاخية الباشا والامير حسن اغا فقام ورجع الى سيِّدهِ فرحَّب بهِ الباشا والبسهُ فروًا فاخرًا وردَّهُ الى مقامهِ الاول هو واخوتهُ

هذا وانَّ المعلم عبود البحري بعد عودهِ الى خدمة يوسف باشا الكنج لم يدم في رتبتهِ زمنًا طويلًا بل انتقل الى مصر بعد سنةٍ وحظي عند امرائها وصار كاتبًا في ديوان الوزراء (١٢٢٤ — ١٨٠٩) ودليلنا على ذلك موشَّح صنَّفهُ الشاعر نيقولا الترك في هذه السنة وارسلهُ الى بعض اصحابهِ في مصر كان من جملتهم عبود البحري والياس

صبّاغ الطيب وميخائيل كحيل الطيب. وفي هذا الموشح يقول في مدح عبّود:

كم تباهت دررُ البحري على كلّ ذي نظم بديعٍ وثنا
وشدت من فوق اعلى الصُّخُن لا يُنبتُ الدرَّ سوى الّا البحارْ
زُمَرُ الكتّاب طرًّا والملا من أولي الالباب توليه الوقارْ
كم تراهُ جاذبًا ان وقفا معدن الارواح مثل المغنطيسْ
بل وكم يسبي عقولًا حينما يُظهرُ الآيات من فوق الطروسْ

واستمرَّ في منصبهِ هذا زمنًا طويلًا فخدم محمّدًا عليًّا وابنهُ ابراهيم باشا وصحب ابراهيم في حربهِ الشاميّة (سنة ١٨٣٢—١٨٤٠) ورجع معهُ الى مصر وفيها توفي نحو سنة ١٨٤٥ م

وقد شاد المعلم عبود البحريّ لذرّيّتهِ ذكرًا مخلّدًا حتى اضحى بيت البحري موردًا للّهيف ومقصدًا لكلّ عانٍ وضعيف. واليهِ التجأ سنة ١٨٤٠ نصر الله الطرابلسي الشاعر الحلبي الذي سنفرد لهُ ان شاء الله مقالةً خصوصيَّة. وقد نال عبود قبل وفاتهِ لقب بك هو واخوهُ حنّا. ولهُ انشاءات حسنة تدلُّ على براعتهِ وتفنُّنهِ في الكتابة. لدينا منها بعض رسائل كتبها باسم سليمان باشا. ولولا ضيق المكان لاثبتنا منها شيئًا

امّا حنّا بك البحري فدونك ما أفادناهُ عنهُ سيادة المطران الجليل ملاتيوس فكّاك قال جزاهُ الله خيرًا: « ولد حنّا في حمص واقام في مصر وجاء الشام مع ابرهيم باشا وعاد معهُ الى الديار المصريّة. وكان متوسّط القامة ذا عمامة بيضاء. ولم يكن بين النصارى من يتعمّم بهذه العمامة غيرهُ وكان لهُ وجاهة عند حكّام مصر. وقد اظهر غيرة عظيمة لخير طائفتهِ لهُ في ذلك الايادي البيض فانهُ بواسطتهِ وبسعيهِ حصلت الطائفة على قطعة ارض من حارة القرائين لليهود في دمشق. وبعنايتهِ بُنيت الكنيسة الكاتدرائيّة في المحلة المذكورة. وقد وهب للكنيسة بيتهُ الذي كان لهُ في حمص وهو اليوم اطوش الروم الكاثوليك فيها (١. وقد خلّف في مصر اولادًا كثيرين اسماؤهم ميخائيل وسليم (والد احد الكهنة الافاضل في البلدة) وقسطنطين وثالثة وزبيدة ووردة. وكثوب وهي لا تزال في قيد الحياة. امّا جرمانوس اخو عبّود بك وحبيب بك فانهُ ولد حبيبًا البحريّ. وولد حبيب عبّودًا (٢ » انتهى

١) راجع الصفحة ١٢٦ من تاريخ الروم الكاثوليك الملكيين. وهو الذي ابتنى لطائفته اطوشًا في طرابلس ٢) توفي عبود هذا السنة الماضية